الناقد شاعراً

د. ربيعي عبد الخالق*

يسري نبض الشعر في وجدان كل نفس، متمثلاً في حسها الرهيف، وذوقها الشفيف، أو بما لها من نصيب في مجال الأداء الإبداعي تعبيراً وتأثيراً.

وهذه شخصية قد سكنتها روح الشعر إحساساً وتذوقاً وإبداعاً، حيث تدفقت ينابيعه مبكرة، فكانت بهذا أولى عطاءاته، سواء في المجالات الإبداعية التي تنوعت بين المسرحية الشعرية، والرواية والقصة القصيرة، أو في المجالات الأكاديمية، التي عُرف بها في ميدان الدراسات الأدبية والنقدية والفكرية، إلى جانب جهوده العلمية في مجالي التحقيق والترجمة وغيرها من المجالات.

وكلنا يعرف الرجلَ عالماً أكاديمياً له قدره ودوره، ولكننا بهذا نكون قد عرفنا عنه شيئاً، وغابت عنا أشياء عَمُر بها عالمه الشعري، الذي نسعى إلى التعرف على بعض جوانبه وملامحه بالقدر الذي تتيحه لنا هذه الإطلالة السريعة.

بداياته:

تفتحت شاعريته مع نهاية العقد الخامس وبالتحديد في عام ١٩٤٨[(١)]، حيث تدفقت أشعاره في غزارة واضحة إذ بلغت في عامها الأول وحده ما يقرب من

---

* كلية الآداب – جامعة طنطا.

(١) شهد هذا العام بلوغه الثامنة عشرة من عمره المديد، وكان وقتها طالباً بالفرقة الأولى بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

سبع عشرة قصيدة ومطولة، ضمت بين دفتيها مشاعر ومشاغل هذه المرحلة السنية، حيث حُمّيّا الشباب، وما تمور به النفس من منازع القوة والفتوة معلنة عن ذاتها في تحدٍّ وتصدٍّ إذ يقول:

إني رفيع القدر سامق همه ... يعلو عَناني فوق كل عَنانِ
وإذا غضبت ففي الدراري رعدة ... والنجم في أفق السماء خشاني

وما يفور به الوجدان من مشاعر متأججة أذابته رقةً وولهاً وشغفاً عبَّر عنها قائلاً:

ليالي سُهادٍ بتُّ أصلى عذابَها ... يُوسِّدُني شوقي لَواعج صَبْوتي
تعالَيْ لِورْدِ الحبِّ نشفي أُوَامنا ... على رفرف الأحلام في ظل أيكةِ
نُبادِلُ أيدينا فَننسى مكانَها ... وينسى كلانا أيَّ أيدٍ هي التي!!

وتتابعت مسيرة عطائه الشعري، ولم تقتصر على معالجة همومه الشخصية، وإنما تنوعت مجالاتها واتسعت مسارها لتوجهاته الإنسانية والاجتماعية والوطنية، في إطار نزعة تقويمية ترتكز على اتقاء ما يسوء، وانتقاء ما ينبغي أن يسود، مستهدفاً الارتقاء بحياة المجتمع والناس، من خلال تأكيده بعض القيم الفاعلة والبناءة في حياة الأمم.

ولكلّ هذه البصيرة الانتقادية والانتقائية التي جاء ماؤها يترقرق في حنايا جُلّ تجاربه الشعرية، تكون هي البذور أو الجذور التي أثمرت وأينعت، فأسهمت في تشكيل بصره النقدي الذي استندت إليه بحوثه ودراساته، التي توخت عناصر قيم الجمال والجلال في العمل الفني والفكري تنظيراً وتطبيقاً، مما يؤكد تأصل هذه

النزعة النقدية في كيانه شاعراً، وامتدادها في حياته العلمية والعملية، فكانت ركيزة أصيلة في اهتمامه البحثي الأكاديمي.

ولحضور هذا التوجه النقدي في معظم تجاربه الشعورية وخبراته النفسية، وهيمنته على دراساته وبحوثه العلمية جاء عنوان هذه الإطلالة (الناقد شاعراً).

مجالاته:

من منطلق حسّه الإنساني والاجتماعي كان حرصه على التفاعل مع روح عصره قبولاً ورفضاً، وكان تعاطفه مع هموم المجتمع ومعاناته، ولذا فإن المتصفح لقصيده يرى تجربته الشعورية قد تنوعت بين الذاتية والجماعية معاً، فالشعر عنده هو الفن الجميل النافع، ولا يكون نافعاً إلا إذا اهتم بتصوير الحياة. الحياة بمفهومها العام، حيث يخدم المثل الرفيعة، والقيم الأصيلة التي تعالج أدواء المجتمع ونقائصه، والحياة بمفهومها الخاص، أي الحياة النفسية للشاعر بما ينتابها من مشاعر الفرح والترح، والحب والكره، واليأس والرجاء.

أولاً: اهتماماته العامة

في ضوء اعتزازه بموروثه الديني والقيمي، وانتمائه لبيئته الشرقية بمبادئها العريقة، وأعرافها الأصيلة، جاء حرصه على المثل والمبادئ التي تكفل كرامة الآدمي، وتسمو بإنسانيته، إذ يقول:

أهوى كريم الخلق دون تكلّف ... هل بالضياء تكلّفَ البدرانِ؟!

وأهيم بالأفضال تسمو كمّلاً ... وأفيض بالإسجاح والإحسانِ

أرضى قضاء الله فيما قد قضى ... والمرء يعلو في رضا الديّانِ

ومن منطلق هذه القيم والفضائل جاء تصديه لما سنح لـه مـن المعايـب والرذائل، ومنها ما أخذه على (بنات الآداب) من تهتك وتبرج، فكان تعنيفه لهن وتهكمه بهن:

خرج النساء مـن القيـود عواليـا ... فـإذا بهـن خـوافض الأعنـاقِ

يرسفن في قيـد الغوايـة والهـوى ... باسـم التمـدن والفعـال الراقـي

إن الفضـيلة كالشـموس ضـياؤها ... لا ينقضـي بترفّـع الأذواقِ!

لطخـن ((آدابـاً)) فكـن ضـلالة ... اسمـاً علـى الأوراق صـنع نفـاقِ

يحسـبن سـاحات العلـوم مراتعـاً ... للعشـق بـين تهتـك ونـزاقِ

يمرحن في كنـف الفسـاد وطالمـا ... هُتِكـت بهـن شـريعة الخـلاّقِ

العلم لا يهوى خطـوط حواجـب ... أو لـون ثغـر أو يـدَ الحـلاّقِ

لولا الرجـال أمـامكن لمـا بـدا ... مـنكن ظفـر عـن دم مهـراقِ!

ويتملى (بنات البلد) معجباً بما طبعن عليه من حسن، وما فطرن عليه مـن جمال، وقد عافت نفوسهن التجمل المصنوع، فزدن حسناً علـى حسـن، ولم يتكلفن المغالاة في التبرج صنيع غيد العصر في تزينهن الممقوت، الـذي زاد عـن الحدّ، فانقلب إلى الضد، فشانهن وأساء إليهن:

حسان بنات الطبع، أهـل سماحـة ... تركن البها حـراً، تصـول المفـاتنُ

فما أُطْلِقَت مثل الوحـوش أظـافر ... لهن كغيد العصر غاضـت محاسـنُ

ولا خُضِّبت أهب الخدود - ضـراوة ... دماء لهـا في كـل خـدّ مـواطنُ

تريد النساء الغيـد جلـب طـلاوة ... وأحلى جمال مـا تجـن البـواطنُ!

وتغنيه بسماحة المظهر والمنظر هنا، ترفدها دعوته إلى سماحة النفس بالبذل والعطاء في وجوه الخير، ومنها ما جاء في حثه أهل الخير على التبرع لجمعية الفتيات المسلمات:

عُمُد الفضيلة يا ملوك عروشها ... هيا ابذلوا في أوجه الخيراتِ
بالمال خطوا فخركم طول المدى ... وتقربوا لله بالحسناتِ
ما أنتمُ من غير ثبت حافل ... بجلائل الأعمال والآياتِ
فاحموا ذمار الدين في جمعية ... خيرية بالجهد والصدقاتِ

وهذا الحس الديني الذي اصطبغت به هذه الأبيات ليس إلا صدى لما يعتمل في كيانه من غيرة على الإسلام وإشادة دائمة بمآثره وآدابه وأخلاقه:

دين يرى في الصفح آية رفعة ... يقوى فيعفو سيداً ومسوّدا!
سن الإخاء شريعة لبني الدنى ... ما أبيضٌ إلا وساوى أسودا
كم من بلادٍ بيننا سفكت دماً ... للسود حتى سوّد الظلم اليدا
ليس الذي صَبَغَ الإلهُ محقراً ... فاللون ما تخفيه ليس بما بدا
رد الكرامة للنفوس فلم تعد ... عرضاً بمال إذ تباع إلى الردى
قد حرر الإسلامُ من رق الهوى ... فكرَ الورى فغدا يفكر سيدا

وهذه المآثر الدينية بما تكفله للإنسان من كرامة نفس، وحرية فكر، وبما تحث عليه من معاني الأخوة والمودة، قد أورثته روحاً أراد لها أن تملأ نفوس الناس لترقى بهم إلى أسمى مراقي الإنسانية وأنقى معانيها:

وأهــبّ للحــق الصــراح أقيمــه وأهــدّ صــرح الظلــم والطغيــانِ
والعدل نــور في القلــوب مضــيع كم مــن ظلــوم بيننــا أو جــانِ؟!
والنفس إن عشــقت جمــال عدالــة تســمو بنــور آلــقٍ روحــانِي

وتحمسه لقيم الحق والعدل والحرية يزداد توقداً وضراوة في مضمار مناصرة حقوق الوطن، والتفاني من أجل بقائه حراً عزيزاً شامخاً: فالأرض عرض.

يقول في (صرخة):

أيا مصــر فــدتك كــل رحيمــة بوليــدها إن مــات عنــك فتاهــا
سبقت إليك قلوبنــا ترمــي العــدا حقــداً وتقضــي ثارهــا بــدماها
لبيك ما في العــيش بعــدك مــترع للروح إن ظلــت تجيــب صــداها
تــأبى نفــوس الأكــرمين مَذلّــةً وترى الردى عنــد القيــود مناهــا

وتمتد أبعاد حسه الوطني، فيتفاعل مع قضايا أمته وما تعرضت له من كبــار أحداث العصر على المستوى العربي في مراكش وفلسطين والسودان وغيرها.

ففي قصيدته (صدى مراكش) يتصدى لما جناه المســتعمرون الفرنســيون، منددا بما يروجون له من مزاعم، وما يتشدقون به من أقاويل زائفة عن حقــوق الإنسان ودفاعهم عنها، فيقول مشنعاً بانتهاكهم للحقوق، متهكماً باســتبدادهم وأحقادهم:

روِّعــوا الحــقَّ بــأرض الشــهداءْ واســجنوه في تصــاريف القضــاءْ
واقتلــــوهُ إن رأى مِــــدفَعُكم أنَّ نســفَ الحــق للغِــلِّ شِــفاءْ

وينفخ في روع فتية الحق مُحَيّياً روح النضال فيهم، ومشعلاً جذوة الكفاح في عروقهم، مبيناً قداسة جهادهم، ومشروعية حقوقهم وحتمية واجبهم:

يــا رجــالَ الحــقِّ يــا فتيتَــه   لــيس كــالحقِّ يتــيمَ الأوفيــاءْ

أنــتمُ أهــلٌ لــه فاستبســلوا   دونــه مــا دام في الــروح ذَمــاءْ

أرخصــوا القلــب وهُبّــوا وحــدةً   تركــزُ الحــقَّ جهــاداً لا رجــاءْ

لم يَعُــدْ للسِــلم فــيكم رَفَــقٌ   بعــد مــا داسَ العــرينَ اللؤمــاءْ

أوقدوا مــن شُــعْلَةِ الحــقِّ الــرُبى   هَشــيم الــروح للعَلْيــا فِــداءْ

وحرصاً منه على إيقاد روح الجهاد في فلسطين وإذكاء مشاعر الغيرة، انطلق يندد بأطماع المستعمر وأحقاده الدفينة، وهمجية انتهاكه المقدسات إذ يقول:

ساء الزمان لنــا أهــلاً بــني رحــم   عرباً أصيبوا مــن الــدنيا بأوطــانِ

قد هب عرب لنصر الحــق منكفئــاً   في ((بيت مقدس)) يشكو زيف بهتانِ

سَــلَّ الظلــوم لــه رمحــاً ليقتلــه   وهو السليب بــلا ســيف ومــرّانِ

ويقول:

ساموا فلسطين ظلماً من مطــامعهم   ذا يرتجي نصفَها والنصــف للثــاني

قد أولموا فوق أعضاء لهــا صــرخت   من عاديات فكــانوا شــرَّ عِقبــانِ

ولما كانت مصر السباقة بجهودها وبطولات رجالها، مواطن اقتداء لغيرهــا؛ فقد حرص على استعراض عراقة شيم الجد والحزم لدى المصريين وتأصل قــوتهم الضاربة في التصدي لهذه الشرذمة المرذولة:

يا باذر الحقد لن تلقى سوى أمم تجري وفاء وإخواناً بإخوانِ
رمنا التوحد لا من بالغ أرباً فينا يغير رفيع العز والشانِ
إنا نقاتل دون الحق لا أربٌ نسعى إليه ولا حبٌ لتيجانِ

ولا يفوته أن ينتقد تخاذل بعضهم ونكوص نخوتهم وتبلد مشاعر الغيرة فيهم، فقال معنفاً، مستنكراً:

ما بال عرب تخلوا عن تحالفنا كانوا رجالاً فصاروا صلد أوثانِ
سجا الرصاص فلا جرس ولا لهب يرمي الأعادي وبالاً مثل بركانِ
أحفاد هاشم هل لازلتمُ عمدا للمجد تبنون عزاً فوق كيوانِ؟؟

وتعلو حدة انتقاداته فيوبخهم متهكماً بضعفهم، ساخراً من تقاعسهم حيث يقول:

رُدّوا السيوفَ إلى أغمادها أمداً حتى تُجلّى بأحرار وفرسانِ
ما للحسام بصنع فضل منقبةٌ إن الحسام بأبطال وشجعانِ
ومن عجيب تروم الأرض مملكةً لهاشم ولها تاج: ((بريطاني))!

وفي قصيدته (وثبة السودان) انطلق يبارك وثبته العاتية من أجل حرماته التي استهان بها الإنجليز، الذين تربصوا بأهله دوائر السوء:

سودان مهد خوالد الأيام أعليت نجم المجد بالإقدامِ
إن المعالي تُبْتنى بجماجم أجيال شم خالد وعظامِ
كذب ((إنجليز)) بأهلنا وتربصوا بهمُ الدوائر من قلىً بظلامِ
حسبوا ليوث النيل أهل مقابر تعنو لذل الجور والإرغامِ

وفي مثل هذه المواقف الحرجة في حياة الشعوب والأمم وما تستعديه من مسؤوليات جادة وواعية، يتوجه بتحيته وسلامه إلى بنت السودان:

يا بنت سودان إليك تحيتي من شاعر عشق العلا وسلامي
لا يشرب النيل الطلا متقاعس يهوى الخنا ويعيش في الإظلامِ
ماء طهور العرق علمنا العلا والمجد ثاوٍ في مقار غلامِ

وهذا التوجه إنما يؤكد الوعي بمكانة المرأة ودورها المسؤول ومشاركتها الفاعلة في قضايا الوطن وهموم نضاله من أجل الحرية والكرامة.

ثانياً: اهتماماته الخاصة (تجاربه الذاتية)

كان لفيض جمال الطبيعة السكندرية التي تفتح وعيه عليها، وتنبهت حواسه إليها، أكبر الأثر في رقة طبعه، ونزوعه إلى التعبير الشعري الوجداني، الذي أكد تعطشه للجمال في كل شيء، ففي روحه ظمأ لا ينطفئ إلى الجمال في كلّ مظاهره ومباهجه، كما هو الشأن عند الرومانتيكيين جميعاً، لأنه مستودع الرغبات والوجدانات.

ويبدأ شاعرنا غمار تجربته العاطفية بالحديث -شعراً- عن تبدل حال قلبه، فقد كان حصناً مانعاً تصدى لكل هجمات عيون الجآذر، فهزمها المرة تلو الأخرى، ولم تترك فيه أثراً إلى أن غزاه سحرها فانجذب إليها:

قلبي حديد مانع أحسب كالحصن الأشبْ
عين الجآذر أنفذت سهماً أغار لم يصبْ

كـــم مـــن عيـــون أبرقـــت والقلـــب منـــها مـــا انشـــعبْ
لاقيتـــــها صـــــبحاً بـــــدت ســـــحراً كلغـــــزٍ في حجـــــبْ
نفـــــذت ســـــهام اللحـــــظ في قلـــــبي إليهـــــا فاســـــتطبْ
للســـــحر أرخـــــى مقـــــوداً لمـــــا رآهـــــا فانجـــــذبْ

ومن هنا كان عليه أن يعيد حساباته، ويصحح وجهته منتقداً نفسه إذ تمادت في الريب!.

أنكـــرت قلبـــاً قـــد عشـــق حـــتى هويـــت فلـــم أربْ
خليـــــت نفســـــي نائيـــــاً بالقلـــــب عـــــن نصـــــب المحـــــبْ
يـــــا ويلـــــتي قـــــد أخطـــــأت نفســـــي تمـــــادت في الريـــــبْ

وفي موقفه من نفسه يذكر بمترع متصوفة المسلمين في زجرهم للنفس كبحاً لجماحها وكفّاً لها عن تماديها في غيها.

وهو في حبه عفيف، لا يصدر فيه عن النظرة الحسية[1] القاصرة للمرأة، وقد حمد لنفسه هذا، وأشاد به في أكثر من موضع.

إنـــــا قضـــــينا للـــــهوى حقـــــاً علينـــــا لم يـــــزلْ
في عفـــــــة وترفـــــــع عـــــن زلـــــة أو عـــــن خطـــــلْ

وهي عفة تقوى مع الأيام وتتأصل:

الحـــــبُّ يجمـــــع بيننـــــا مترفعـــــاً حـــــتى الأجـــــلْ

(١) باستثناء أبيات قليلة تلوح هنا وهناك ولا تمثل اتجاهاً أو نزعة في شعره.

ويؤكد قناعته بقوله:

فمـا صـبوتي إلا صـبابةُ ناسـكٍ يهـيم بنـور يجتليـه بعفـةِ

وقوله أيضاً:

إني وإن لعـب الغـرام بمهجـتي عف الهوى أبـداً أصـون خلاقـي
لم أستبح خـدر الهـوى بصـغائر يغضي بها وجـه الحيـاء الـواقي

وفي ظل هذه العفة ارتقت مكانة المرأة في نفسه فكانت كل شيء.

يـا شمـس هيـا فـاغربي يـا بـدر هيـا فاحتجـبْ!
إن الحبيـب معـي هنـا لا شـأن لي بضـيا الشـهبْ

بل هي أسمى وأرقى ما في حياته:

جـدول أنـت في مفـازة قلـبي شـاعريٌّ مهدهـد بـالورودِ
أنت ما أنت؟ أنـت كـون بهـيج متـرع بالحيـا وسـحر الخلـودِ
أنـت عينـاي تنفـذان لكـون مغـرد في البـها فريـد الوجـودِ
أنت أمسي وأنت عيشـي، غـداتي أنت صبحي وفجر عمـري السـعيدِ

فهذه رؤى شاعرية رقيقة لتلك العلاقة الحميمة التي ارتقت وسمت بعيداً عن النظرة الحسية أو الجسدية إلى درجة من السمو فصارت تحاكي علاقـة الـروح بالجسد، وعلاقة الحياة بالماء والرواء،.. إلى غير ذلك من الصور الشفيفة الموجبـة التي تميل إلى تهاويل الرومانسيين.

أنت روح تطوف جسـمي فيحيـا إن رأيـت المنـون تـبني لحـودي

وطرحت الشقاء عن طفل أُنْسي بعد أن شاب من فراق السعودِ

ومن منطلق هذه الحميميّة، وتلك العفة فإن علاقة الحب بنّاءة، علاقة خصبة وعميقة، علاقة تنهل بالروح وتتصل بالعقل معاً فتضيء البصر، وتذكي البصيرة، وفي هذا الشأن يذهب شاعرنا مذهب الرومانسيين في كون التجربة الوجدانية الصادقة هي مصدر المعرفة الحق في الحياة، وبها ينفتح الإنسان على الجديد من مجالات الحياة ومعارفها:

إن قلباً بغير طيفٍ نجيّ أبكمُ الحسّ واهنُ الأبصارِ
غارقٌ في الظلام يغشاه ليلٌ أبديٌّ ينوءُ بالأسرارِ
في قناع من الأسى محكم اللَّصْقِ توارى كلائذٍ من عارِ

كما تسمو بالنفس فتنقيها من الأدران والأحقاد:

يا فتنةَ الروح آفاق مطهرةٌ نختال فيها بنورٍ منك في رشدِ
ننسى بها ما تضمُّ الأرضُ من نقمٍ بنتِ الشرورِ كداءِ الحقدِ والحسدِ

وعندما يعاني اضطرام التجربة المعيشية في تقلباتها بحلوها ومرها، يأخذها في التغني بما ذاقه من ألوان السعادة في وصالها، وما عاناه من مشاعر الأسى والألم في الحرمان منها، فيقول في وصالها:

ولدت جديد العمر بعد لقائنا وليس لمن يهنا تذكرُ شقوةِ
تعالي لورد الحب نشفي أوامنا على رفرف الأحلام في ظل أيكةِ
نبادل أيدينا فننسى مكانها وينسى كلانا أي أيدٍ هي التي؟!

وفي بعادها وحرمانه منها يضج شاكياً:

ليالي سُهادٍ بتُّ أصلى عذابَها يُوسِّدُني شوقي لَواعج صَبْوتي
هبيني انطلاقاً من إسار صبابة وخَلِّي بقايا الحب تبقي بقيتي
سلاماً إلى مَن ذاب روحي بروحها فقد حان ترحالي، عذابي وجنتي
وداعاً سأمضي عن رباك معذباً إلى مهمه الحرمان في ليل عزلتي

وإلى جانب تجاربه العاطفية هذه، جاءت أشعاره تعالج تجاربه النفسية، وتبوح بما يكنه عالمه الداخلي من خواطر وهواجس.

ونراه في بعض هذه التجارب يتأمل تيار الحياة في جريانها من حوله؛ ليستوحيها المعاني الخالدة في أبديتها ودوامها، حيث ينظر إلى الأشياء كما ينظر إليها سائر الناس، إلا أنه يستشف من هذه المرئيات المحدودة زمانياً ومكانياً معاني مطلقة لا محدودة.

إن البصر الموحي إلى البصيرة، والحس المحرك لقوة الفكر والخيال ليسبر الأغوار البعيدة، والأبعاد غير المتناهية، ففي قصيدته (عند الرواح) نلمس إحساسه الرهيف بالطبيعة، وألفته الحميمة بمظاهرها التي تستقطب كيانه، فيسبح بتأملاته في عالمها وعلاقته بعالم الإنسان، فيختار من واقع الطبيعة بعض مظاهرها المحسوسة والمحدودة زمانياً ومكانياً، فيصهرها في طوية نفسه لتوحي بنموذجها المطلق غير المحدود، إذ يقف في هذه القصيدة عند بعض مشاهد لحظة الغروب، حيث وقت الرواح: رواح النور والطيور والرعيان والقطعان.. إلخ، ويعبر عن حسّه الرومانسي تجاه هذه المشاهد وما تبثه في نفسه من أصداء شجية فيقول:

النـــور يـــذوي في البطـــاحْ والطـــير يفـــزع للـــرواحْ
وملاحـــنُ الرعيـــان تبـــ ـــدو في الإيـــاب صـــدى نـــواحْ
والعشـــبُ ودعـــه الأصيـــ ـــل يميـــل مـــن نشـــوات راحْ
ومتوَّجـــاتُ النخـــل يعـــ ـــبث كبرهـــا فـــوق الريـــاحْ

فعند الرواح تبرز الحقيقة المرة الخالدة، حقيقة تبدل الحال غير الحال:

لم يبـــق في الـــوادي ســـوى شـــبح يعـــيش علـــى الخفـــاءْ
يبـــدو الظـــلام بـــه كأحـــ ـــقاد يضـــن بهـــا الـــدهاءْ
خفـــت الوجـــود بـــه فـــلا لحـــن يـــنم ولا غنـــاءْ
لحـــن عميـــق كـــان فـــ ـــتَّان المعـــاني ثم راح

ويستنطق عالم المحسوسات لينطلق منه إلى النموذج المطلق (للرواح) والمصير المحتوم للإنسان، بأبعاده الممتدة إلى ما لا نهاية، حيث لا حدود زمانية ولا مكانية:

زالـــت معالمـــه وتلـــ ـــك نهايـــة الأمـــل الغريـــرْ
فمـــن الطفولـــة للكهـــو لـــة للتـــراب إلى المصـــيرْ
وحقـــائق الكـــون العظيـــ ـــم تعـــيش في الـــوادي الصـــغيرْ
فضـــت أمـــامي ســـرها في ســـاعة عنـــد الـــرواحْ

ونحس نفساً رومانسياً أصيلاً يسري في عروق جميع أشعاره التي توفر فيها على الاهتمام بنوازع وخلجات عالمه الداخلي، ومنها إحساسه الأليم بالغربة عما يحيط به من واقع بشري مجحف ينفر منه:

أصاحب الذئب لا أخلــو لإنســان   وأصطفي الليث دون العاقل الجــاني

لولا جهاد معــاش بــات يعشــقه   قلبي لسامرت وحش الأيك والبــانِ

تبدو الوحــوش بخافيهــا لظاهرهــا   والأرض تبدي ذئبــاً طــي إنســانِ

إن الليوث تكف البغي إن طعمــت   والمرء يبدو علــى مِــلْءٍ كجوعــانِ

إن الشرور مع الآمادِ قــد رضــعت   ثدي الوجود فلا تعذل أخــا العــاني

ولذا انطلق في قصيدته (هروب) على أجنحة خياله المحلق، ينشد الخــلاص بالانصراف عن العالم المرئي، صانعاً لنفسه عالماً من الأحلام يعوضه ما افتقده في عالم الناس، وينأى به عن الهموم وعذابات المحن:

سأظل أشدو في ربى الأحــلام كالأمــل الســعيدِ

سأظل أعلــو في سمــاء الــوهم كــالنجم البعيــدِ

سأظل منطلق الجنــاح أهــيم كــاللحن الشــرودِ

سأظل مخمــور الفــؤاد أعــيش للــوهم الجديــدِ

وإذا تكاثفت الهمــوم ونــاء بي قيــد الــزمنْ

لم يلق دهري ما يريد من العذاب مــن المحــنْ

وتدل لفظة (سأظل) على رغبته في استمرارية هذه الانطلاقة وشدة تعلقــه بها، وإيمانه بأهميتها في حياته. كما يأتي تكرارها ليؤكد نفوره وحرصــه علــى الخلاص من عالم الواقع الموبوء والمرزوء، واحتفاله بعالم أحلامه. إنه عالم السعادة

obeikandi.com

والموطن الآمن الذي يشبع حنينه إلى ميلاد جديد، وإلى عالم الطفولة حيث البراءة والرحابة وبكارة المشاعر:

في عـــالمي نـــور تفـــيض بـــه الـــروابي والســـماءْ
ينساب حولي في ســـلام ملـــهم عـــذب الصـــفاءْ
لا تـــبرز الأنيـــاب فيـــه مـــن ريـــاء أو دهـــاءْ
أو تصرخ الأهـــواء ظمـــأى للضـــحايا والـــدماءْ
رفت به الأطيـــار تخفـــق بالغنـــاء وبالأمـــلْ
ويثير فيـــه العطـــر والأنـــداء أحـــلام القبـــلْ
وأعيش كالطفـــل الغريـــر بـــه أســـامر خـــاطري
لا تصـــرع الآمـــال فيـــه ولا يقيـــد طـــائري
أنســـى الزمـــان وقيـــده وجـــراح قلـــبي الحـــائرِ
وأظـــل أشـــدو في ربى الأحـــلام لحـــن الشـــاعرِ

ولم يأت هذا الهروب تخلياً عن دوره في رفض النقائض، والدعوة إلى ما يحيا في أعماقه من القيم الإنسانية والأخلاقية، وإنما صـــارت هـــذه الدعوة ديدنه في عالمه العامر بالصفاء والنقاء، فمن خلال تغنيه بما يسمو به عالم أحلامه، أخذ يشير من قريب ومن بعيد، ملمحاً ومصرحاً بهذه المعايب والمساوئ، معلناً أسبابها، ومشنعاً بآثارها وجرائرها كمـــا في قوله:

أنا لا أرى في عـــالمي المحفـــوف بـــالورد النـــديْ
أملَ الصغير من الـــورود يمـــوت في ظـــلّ القـــويْ
والســـم ينفثـــه الحقـــود بوجـــه ناديـــة بغـــيْ
ليبـــث شـــوك الـــذل والإرعـــاد في قلـــب الأبيْ

وزنابقَ الأحلام يهـــرق عطرهـــا بـــاغ عنيـــدْ
وتسلُّ في كف الشباب من الرياض إلى اللحـــودْ

أنـــا لا أرى في عـــالمي لـــلإثم أفـــواج العبيـــدْ
يسعى بهم ليـــل جديـــد للخطايـــا مـــن جديـــدْ
لـــص، بغـــي، قاتـــل، عـــات وشـــيطان مريـــدْ
مُلئـــت نفوسُـــهم ظلامـــاً فاســـتكانوا في القيـــودْ

وترى ضـــحاياهم يشـــيبون الليـــالي بـــالأنينْ
وغذاء جرحهمُ الأسى والثأر والحقـــد الـــدفينْ

ويستمر في إدانة الواقع البغيض، ومحاكمة ضلالاته وتجاوزاته، حيث انعدمت فيه القيم وخربت الذمم، فصار الأنام أشباحاً في عالم الظلم والظلمـــات الـــذي تناوله في قصيدته (الأشباح):

وكثيراً من الأنام إلى الأشباح صاروا وإن هُمُ بجســـومِ
يرهبون السّنا ويهوون ستر الليل في حال الظلام الجثـــومِ
كالخفافيش في الدجى تطلب العيش لســـر يكـــون في

وبهيُّ السَّنا لعين العصافير حياة ومقتل للبومِ

❁ ❁ ❁

فترى في الأنام سارق عرض أو حياة يكيل للناس حقدا

وغوياً يسل روح الضحايا بالتهام الحقوق عهداً فعهدا

وعتياً يغل مال البرايا باحتيال رمى به الناس وردا

وألوفاً تلبسوا بدجى الأشـ ـباح شادوا على المذابح مجدا

أما وقد ضاق ذرعاً بما في عالم الناس من أرزاء وأدواء، فكان توجهه إلى الله، يبثه ما أمضه وأكداه:

يا إلهي وأنت للعدل ربّ لك في الناس عاجز وقويُّ

أَمِنَ الطينِ بدؤهم نبعَ الخُلف أم الخُلفُ ذاك شيء خفيُّ

يسترقّ القوي من هو بالضعف على مذبح الورى آدميُّ

أَتُرى عالم الظلام من الأشباح فيه مسالم وغويُّ

وإن كان شاعرنا قد أعلن فراره عن هذا العالم المرذول، حيث وجد ضالته في عالم أحلامه، إلا أنه يعود، فيعلن عن عدم جدوى الأحلام في معالجة الواقع والارتقاء به، فالخيالات أوهام كذاب لا ترقئ مدامع ولا تبرئ مواجع:

أترانا مع الخيال عدونا بالليالي فلم نعرها عيونا

وجلونا من الأواني كذابا رائع السبك في الدنى لن يكونا

وغزار الدموع تسقي ربانا وعيون القلوب تبكي أنينا

أما وواقع الأشباح كئيب والخيال كذوب، والعيون تملكتها الدموع، والقلوب تشكو الأنين، فلا مفر من هذا وذاك إلا بالعودة إلى الله، تستشعره القلوب وتراقبه، وتراه العيون وتستجديه، فهو ملء هذا الكون موجود في كل الوجود:

ملء هذا الكون لا يخـ ـفى عليه ما يهونْ
فتراه في جميع الـ ـخلق ذا نور أمينْ
في ورود الروض في طيـ ـر صدوح باللحونْ
في وليد العشب في نو ر طريـ ـر في الغصونْ
في لجين الصبح في فحـ ـم الدياجي المستكينْ
في تراب في سحاب في سهول في حزونْ
في نجوم في غيوم في عرين في وكونْ
يغمر الكون سناه وصداه في اليقينْ

أدواته وجمالياته

إن ثقافته التي ضربت بجذورها في عوالم الشعر العربي قديمه وحديثه قد أحدثت بينه وبينها تراسلاً وجدانياً وفنياً:

وقد جاءت باكورة أشعاره -حيث تلمس الطريق- تحافظ على التقاليد المعهودة للتراث الشعري العربي القديم، وتستوحي وتستعير بعض طرائقه وألوانه في التعبير والتصوير، ومنها ما نلمسه في (صدود):

ألاقي من صدودك ما ألاقي وأرضى بالبعاد على اشتياقي
لطيف، كاعب، ضحاك بدر ربيع فؤادي الحي التلاقي
إذا عاتبته يوماً شكاني وألب مِنْ شآمٍ أو عراقِ
وقال الصب عندي ثم يمضي مطيلَ البعد يعقبُ بالشقاقِ
يحاكي البدر أضواء وحسنا وليسا في الظهور على وفاقِ
فكن كالبدر يطلع كل شهر ولا تجعلْ حياتي في محاقِ

وكذا ما جاء في قصيدته (حب وحنين) ومنها قوله:

ورقاءُ ناحت فاستهلت أدمعي ناحت وكان السامعون غصبونا!
أرخت عيوني للدموع أعنة فجرت وكان بها الحنين معينا
ورقاءُ مثلي قد ضممتِ على الهوى قلباً فصار لدى الضلوع سجينا
قلبي تأسى بالشجى رغم الأسى ولربما عاد الحزين حزينا

ولا غرو أن يحتفظ شعره ببعض السمات التراثية، فالتراث العربي بضخامته وعراقته وثراء عطائه استطاع أن يأسر العقول والقلوب، وأن يفرض بصماته على كبار الشعراء المحدثين والمعاصرين.

ولم يدم هذا التلمس طويلاً إذ تفاعلت شاعريته مع إبداعات الرومانسيين العرب يتقدمهم أبو القاسم الشابي، فقد عايش شعره، وعبر عن إعجابه بفنه من خلال معارضته للدالية المشهورة (صلوات في هيكل الحب) وهي قصيدة طويلة من ثمانية وستين بيتاً، استهلها الشابي بقوله:

عذبـــةٌ أنـــت كالطفولـــة، كـــالأحلام، كـــاللحن، كالصـــباح الجديـــدِ

عارضها في مطولة من خمسة وستين بيتاً سجلت تفننه في الـتغني بفـيض الجمال، وسلطان الجلال، وسحر البهاء، يقول في مطلعها:

نبضـــة أنـــت مـــن جمـــال الـــدنى العـــذب المجلـــى بلحـــن رب مجيـــدِ

ومنها قوله:

وردة أنـــت مـــن ورود الأمـــاني قد سقاها الســـحر الوديـــع بجـــودِ

بســـمة أنـــت في فـــم الـــدهر للســـعيد الطـــروب في يـــوم عيـــدِ

أنـــت لحـــن علـــى شـــفاه زمـــان ضـــاحك نـــاعم بســـحر نشـــيدِ

وأولى شعر المهجر عنايته واهتمامه الذي وضح في دراسته لقضاياه، والجديد فيه، فكانت له أصداء في شعره، ولا سيما في مجـال تأملاتـه، ورؤاه للطبيعـة والحياة، ومنها -على سبيل المثال- ما جاء في تصوير إحساسه بلحظة الإمســاء وما ينتاب النفس والكون من تغير وتبدل، إذ يقول في قصيدته (عند الرواح):

النـــور يـــركض خائفـــاً كالطفـــل مـــن شـــبح مخيـــفْ

في كـــل ناحيـــة يـــرى في الليـــل أفـــواه الكهـــوفْ

في جوفـــه يبـــدو لـــه زنـــج يـــثيرون الـــدفوفْ

أيـــن المفـــر مـــن القضـــاء أبالبكـــاء أو الصـــياحْ

إذ تذكرنا برؤى وهواجس إيليا أبي ماضي فيما يستشعره في (المساء) ومنـه قوله:

السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفينْ
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبينْ
والبحرُ ساجٍ صامتٌ فيه خشوع الزاهدينْ

وفي قصائده أمثال: عند الرواح، وهروب، والأشباح، نراه قد تحول عن النسق القديم للقصيدة العربية الذي يلتزم القافية الموحدة، حيث نلحظ حماسته للتنويع في المقاطع والقوافي، تنويعاً يدل بوضوح على تأثره في بناء قصائده هذه بالموشحات الأندلسية، وبتجديدات المهجريين في هذا المضمار.

وفي ضوء اكتمال أدواته الفنية، وثراء تجاربه الحيوية وخبرته النفسية، جاءت لغته لغة شعرية تصويرية، تقوم على التعبير بالصورة، فكان أداؤه في معظم أشعاره أداءً تصويرياً يبعد به عن التجريد والتقرير.

ومن نماذج ولعه بالتصوير ما رسمه من ملامح عُجْبِ ودلالِ (بنات البلد) من خلال هذه اللقطة:

يلاطفن بالفعل الرشيق جوامدا من الأرض تعلو إثرهن الملاحنُ
بأردية محبوكة في سوادها تهادين تبدو من خفايا المفاتنُ

إنها الصورة الحية التي تكشف خبايا نفوس ذوات الدل، وتحكي تفننهن في استعراض مفاتنهن لبلوغهن المآرب في الإثارة والتأثير، وهي لغة تؤكد فطنة الشاعر لهذه المعاني ومهارته في عرضها شاخصة، مجسدة.

ومنها أيضاً - هذه المشاهد التي التقطتها مصورته، ورسمتها فرشاته حية نابضة بالحركة والحياة (على الشاطئ) لهذه الحسناء في انطلاقتها ورشاقتها:

وتقلبت فوق الرمال سخية بالحسن يلثمها الحصى في مكرِ
متعلقاً تثنيه عن يدها قِلىً فيجيبها قبلاً بدت في النحرِ
وكأنما لمحت من الرمل الهوى فتخلصت من حبه بالهجرِ
وترجلت عن كبرها وتواثبت فوق الرمال فراشة في نورِ
حلت غدائر فرعها فكأنما نثرت ذكاء أشعة من تبرِ
وتلقفت أحضانُ موج حسنَها بين التردد شاردات الفكرِ
قد أذهلت بالحسن أمواجاً كما لو أنها قد رُكِّبتْ من خمرِ
تتلاحم الأمواج زائغة النهى ترجو رحيقاً من ذباب الثغرِ
لا تعزبي في الماء ثمة غائص يرنو لمثلك لاهثاً في صبرِ
تاج الملوك بغير مثلك درة عَطِلٌ وإن قد زينوه ببدرِ

وهذه الأبيات بما تضمنته من اللقطات الحية والتعليلات الطريفة إنما تشف عن خفة الظل، وتوحي بلطافة النفس، ورهافة الحس بالجمال الذي استقطب كيان شاعرنا روحاً وعقلاً معاً، إذ نلمس إعجابه النفسي، وفرحه الروحي بهذه الحسناء قد فاض على كل الوجود من حوله، وانعكس على الرمال والصخور والأمواج، فدب في الجميع نبض الحياة مما أذاب القلوب ولهاً وشوقاً، وأزاغ العقول تعلقاً وعشقاً، فراح الصخر يلثم في مكر، والرمل يقبل اليد والنحر، والأمواج تحتضن الحسن، وتهفو لرحيق الثغر، وانطلق يناشد الحذر، فالغواص يبتغيها، ويطمح إليها، ويطمع فيها، وتيجان ذوي السلطان إليها تهفو، وبها تسمو وتزهو.

ونذوق نكهة الجدة والابتكار في لغته التصويرية الموحية، عندما ينقلنا إلى عالم أحلامه معبراً عن هواجس وجدانه الرومانسي في مثل قوله:

في عالمي نور تفيض به الروابي والسماءْ
ينساب حولي في سلام ملهم عذب الصفاءْ
لا تبرز الأنياب فيه من رياء أو دهاءْ
أو تصرخ الأهواء ظمأى للضحايا والدماءْ
رفت به الأطيار تخفق بالغناء وبالأملْ
ويثير فيه العطر والأنداء أحلامُ القبلْ

إنه عالم المحب للحياة والأحياء، ولذا يرغبهم فيما يرتقي بهم، ويسمو بمشاعرهم وإنسانيتهم عذوبة وصفاء وأمناً وأماناً، ويتفنن في ترهيبهم وتنفيرهم من عالم القبح بصوره المشينة، التي أبدع في تجسيمها، فجعل للرياء أنياباً توحي بشراسته في الفتك بالذمم وضياع القيم، وأبرز الأهواء في وحشيتها وشراهتها المتعطشة دوماً لدماء الأبرياء الضحايا والضعفاء.

ويعاوده الحنين إلى عالمه حيث رفيف الطيور وشدوها، وإشراقة الروح بأصول الأمل، وحيث أحلام القبل التي تعيشها النفس في نشوة العطور والأنداء.

وتصدر ندرة التشبيه في بيته الأخير هذا عن إحساسه بالمزاوجة والتوحد بين الطبيعة العطرة الندية وأحلام القبل، إذ يعايش فيهما نشوة واحدة وإن اختلف مظهرها، وكذا الشأن في لوحته التي رسمها واصفاً ما كان عليه الوادي من بهاء وضياء، قبل أن يطبق عليه ظلام المساء، إذ يقول متعجباً:

أيـــن الأغاريـــد العـــذاب مـــن المزاهـــر في الطبيعـــةْ
يشـــدو بهـــا الـــوادي لأنـــوار الســـماوات الوديعـــةْ
فيثيبـــه الله العظـــيم علـــى تبتلـــه ربيعـــهْ
ويفـــيض بـــالوادي المـــنير مـــن الســـماوات المـــراحْ

ففي إطار هذه التعبيرات المجازية تتكاثف الصور الثرية بإيحاءاتها وما تعكسه من رؤى ودلالات نفسه، إذ تستوحي البصيرة، بعيداً عن الوقوف عنـد رصـد المشاهد الخارجية والرؤية البصرية، وعلى قدر نفاذ البصيرة، وخصوبة المخيلـة، يكون نصيب الصورة من الأصالة والجدة والابتكار.

وتعكس هذه اللوحة أصالة تلك الرؤية الإيمانية التي تتمثل الوادي بمزاهـره قلوباً شاكرة، وألسنة ذاكرة، تسبح بحمد ربها في تجرد وتبتل، فصارت أهلاً لمثوبة الله العظيم، وفيوضات عطائه التي لا يحدها حدّ، ولا يحصيها عدّ.

ولعلك تلمس جلال المعنى وروعته، وحسن التعليل وطرافته في قوله:

فيثيبـــه الله العظـــيم علـــى تبتلـــه ربيعـــهْ

إذ فسر تأثير الربيع على الوادي خصوبة ونماء وإزهاراً على أنها مثوبة عظيمة من رب عظيم لمخلوق عاش في معية ربِّهِ ناسكاً متبتلاً.

ومن بلاغيات التشكيل الشعري عنده اتخاذ الرمز -أحياناً- وسيلة للإيمـاء والتلميح بما يريد طرحه من الحقائق بعيداً عن التقرير والتصريح، كما في (توبـة الأسد) وهي قصيدة طويلة من سبعين بيتاً، تجد صورة محسوسة رسمها الشـاعر

لتسجل بتفصيلاتها أطواراً من حياة ليث الغاب، ومنها ما أنطق به الليث مصوراً جبروته وشراسته:

كنت ليث الغـاب ذا نـاب طغـى   أصطفي القربـانَ بالخلـب النـهِمْ
أمـلأ الـدنيا زئـيراً مرعبـاً   يرعـد الآفـاق بالصـوت الغلِـمْ
أفـزع الأطيـار في وكناتهـا   أرهب الأتبـاع لا أرعـى الحـرُمْ
عـلَّ نـابي مـن دمـاء وارتـوى   مخلـبي حـتى أصـابته الـتخَمْ

وأدرك الليث وخامة العاقبة فعافت نفسه البغي والطغيان فسعى تائباً:

راعـني ظلمـي وأضـحت بغـيتي   أن أقيل النفس مـن دنيـا الـوخَمْ
كيف أرضـي الله سـاءلتُ النـهى   وعبـاب الإثم بحـرٌ يلـتطِمْ؟
كيف أمحو ذكـره الماضـي الـذي   قد همـى بـالبغي مـني واحتـدَمْ؟

لقد تاب وأناب متخلياً عن وحشيته، متخلصاً من جبروته:

واعتزلـت الخلـق أوابـاً أرى   جنـة الـنفس بصـمت كالصـنَمْ
قانعـاً بالمـاء في تيـه جـرى   طاعِمـاً بالغُصـن أحيـا كـالنَّعَمْ

ثم خانته القوى، فأصابه الضعف والهزال، فصار شكلاً بلا مضمون، ومظهراً بلا جوهر، وهباءً تذروه الرياح:

خانت الليثَ القـوى واسـتجمعتْ   ضـعفَها فانهـدّ يصـلَى بالنـدَمْ
مثـلُ طَـوْدٍ نَخَبـوا أساسَـهُ   غير شبٌ هُـدّ مـن ريـح بِفَـمْ(١)

---

(١) نخبوا أساسه: نزعوا.

ولكن على الرغم من ذهاب قوته فقد بقيت له هيبته.

وقد جاء الأسد هنا رمزاً لأصحاب الجبروت، تذهب مع الأيام قوتهم المادية، ولكن تبقى لهم آثار من هيبتهم الماضية، يستشعرها كل مَنْ يراهم.

وتعدى في بعض ((إطار القصيدة)) إلى عمل فني كبير متعدد الجوانب تتنوع فيه المشاهد ويتداخل فيه القص والوصف والحوار، وقد تجلى ذلك في مطولته (أهازيج موت) من مئة وخمسة وتسعين بيتاً، صاغ في إطارها حكاية ذات خط درامي، تدور حول مأساة (ثريا) تلك الحسناء التي فاجأها الموت ليلة زفافها على توأم نفسها، وشقيق روحها الذي اختارته من بين خطابها الكثيرين..، ونكتفي ببعض لقطات منها:

لهفي! ((ثريا)) ذات حسن ناضر متألق في سرحة الأرواحِ
كانت كلمح راقص مستعذب يجلو قلوباً صدأة الأتراحِ
لاقت خدين القلب توأم روحها من بين عشاق لها أسماحِ
عقدوا لها في ليلة مياسة حفل القران بمجمع لمّاحِ
وبدت مواكب عرسها في زفة كالبدر زف من النجوم ضواحِ

ويصفها وهي تستنجد مما ألم بها، فيقول بلسانها:

كفوا الشدائد عن فؤادي ترعوي صدوا مخالب ضيغم مجتاحِ
رفعوا العروس إلى فراش ناعم لم يرتشف من حسنها الوضاحِ
وتحرقت شفة تخلى كرزها عنها بُعَيد توجعٍ ملحاحِ

أُمّـــاه صُـــدّي دمعـــة وتجلـــدي فالـــدهر غـــير ملاطـــف مســـماحِ
عات يصول بكـــف وَهْـــن مســـاءة لا ينتـــهي كالجـــازر الســـفاحِ!
وأتى القـــرين ينـــال ضـــمة والـــه حُمّ القضـــا فرمـــى لهـــا بســـلاحِ
قـــومي لنحيـــا في ربيـــع هنـــاءة فوق الـــرُّبى مـــن باســـم الأفـــراحِ
لم يســـمع المقـــدور منـــه شـــكاية فقضـــت كـــورد ناضـــر نفّـــاحِ
وكذا عُقاب الموت يختطـــف المـــنى تغشـــى صـــدورَ مـــؤمّلي الأفـــراحِ

فمن خلال هذه الحكاية استطاع أن يبث بعض ما وعاه من دروس الـــزمن وصروفه، وأن يعرض آراءه في الحياة وتقلباتها.

ومن القيم الجمالية الطريفة عنده اتجاهه في بعـــض أشـــعاره إلى التصـــوير الكاريكاتوري الساخر، الذي يعكس خفة الظل، والميل إلى الدعابة والتفكه، كما في قصيدته (إلى صديق كاد يغرق) التي تنطوي على المفارقة المـــثيرة للضـــحك، تهكماً من هذا الصديق الذي أخذ يصول على الشاطئ ويجول اختيالاً ومرحـــاً، مُظهراً دواعي المهارة والشجاعة إلا أنه يخوض تجربة العوم فيفشل، ويخيب الظن فيه، ولذا يقول مستخفاً به:

أتـــذكر يـــا أحيمـــد إذ ذهبنـــا نجـــاري النـــاس قفـــزات وســـبحا
رأيـــتُ الجـــو إعصـــاراً فحســـبي على الحصاء أجلـــو الوجـــه سمحـــا
خلعتَ الثوب عنـــك لكـــي تلـــبي نـــداء المـــوج مختـــالاً مُلِحّـــا
لهيب الثـــوب منـــك دعـــاه مـــاء وظنـــك أن في الأمـــواج فتحـــا

تتيه به على الشطآن زهواً أمام الغيد والشبان مرحى!
إخالك في ثيابك مستعداً كليث إنما ألقاه شبحا
وغبت عن العيون وأنت شمس وعدت من الكسوف خروف أضحى
بليل الثوب خفاقاً ذليلاً وجيب القلب يكفي الشكل شرحا
وأسمع من شفاه الغيد همساً عن البطل الذي قد رام نُجحا
ومالت كاعب في الأُذْن همساً بوجه ناعم تختال صبحا
صديقك إن أراد اليوم سبحاً فخذْهُ جاعلاً في البيت قدحا!

وتأتي -أحياناً- صوره الكاريكاتورية مشبعة بانتقاداته اللاذعة وسخرياته الموجعة، مثيرة للأسى، ومعبرة عن السخط، كما هو الحال في قصيدته (زمان القرود) التي جاءت تعج بالحركة الدرامية القائمة على الصراع بين عوامل البناء ومعاول الهدم، وإدانة المفارقات والتجاوزات الدالة على اختلال المعايير وفساد القيم، والتي تشكو عبث أهل هذا الزمان، وتصور عالمهم المخبول، الذي استمرأ الفوضى والانحطاط والضياع وانقلاب الأوضاع:

تسلقي ما شئتِ يا قرودُ بغابتي قد نامت الأسودُ
وحَلّقي في الجو يا بغاثُ نسورُ دهري غِلمةٌ وغيدُ
عليم هذا العصر مات غَمّاً وجاهلٌ رأسَ النهى يسودُ
وحرٌّ عقل غاب في قيودٍ وأحمق في حُمقه سعيدُ
تمردي يا أمة المثاني على زمان ساده العبيدُ

عـــدوّنا مـــن مشـــرق وغـــربٍ لـــه علـــى أشـــلائنا حشـــودُ
تمرغـــي في الوحـــل يـــا خطانـــا بفُرقـــةٍ مـــن بعـــدها نبيـــدُ
تســـلقي مـــا شـــئت يـــا قـــرودُ بغـــابتي قـــد نامـــت الأســـودُ

مقتطفات من شعره

١- فتنة الروح[١]:

يا فتنةَ الروح لا تقتات مـــن جســـد مضناك في الحب لا يســـلوك للأبـــدِ
ما أنتِ حمى سرَتْ في الجسم من وَلَهٍ تـــوهي قـــواه وإن تبقـــي إلى أمـــدِ
كالآل يخلب ذاك الضالَّ في ســـغب يسعى إليه خبيبـــاً دون مـــا ثَمَـــدِ!
كالبرق يومض في ليل ومـــن لُجـــج يُـــدي الضـــياء ويخفيـــه ولم يكـــدِ
مثل السراج بغـــير الزيـــت منطفـــئٌ مثلُ الغـــديرِ بغـــير المـــاء لم يُـــرَدِ
بل أنتِ نور -وقاكِ الله من عَطَـــل- يجلو النفوسَ بســـحر غـــير مفتقَـــدِ
يـــا فتنـــة الـــروحِ آفـــاق مطهّـــرة يختال فيها بنـــور منـــك في رشَـــدِ
ننسى بها ما تضم الأرض مـــن نِقَـــم بنتِ الشرور كداء الحقـــد والحســـد

٢- على مرفأ النسيان[٢]:

هبيني انطلاقاً مـــن إســـار صـــبابة وخَلِّي بقايـــا الحـــب تُبْقـــي بقـــيَّتي
سكبت رحيق العمـــر فيـــك تخـــيلاً وقدمتُ هذا العمرَ كأســـاً لنشـــوتي

(١) قصيدة من خمسين بيتاً.

(٢) مطولة من مئة بيت.

خيال يـدانينا فنـدنو مـن السـها وإن بان عنا ضاق وجـه البسـيطةِ
أأسلو هواها وهو يرسـف في دمـي وأنكر قلبي وهـو دائـم خفقـةِ؟!
أعني على الماضي ودعـني لحاضـري ففي الأمس صهبائي وفي اليوم سكرتي
سلاماً إلى من ذاب روحي بروحهـا فقد حان ترحـالي عـذابي وجـنتي
وداعاً سأمضي عـن ربـاك معـذباً إلى مهمه الحرمـان في ليـل عـزلتي

٣- فجر على الشاطئ[1]:

ونسـجتْ أوردة الفـؤاد حبـائلاً فَطوت خيـالاً لا يفـارق صـدري
هدهدتـه بالصـبر في فلـك المـنى فشكا: أصـبر في مغـاني الجمـر؟!
وصَفيّة الحسن الرطيـب ترقرقـت كالظـل في ثمـر الـربى والنَّـوْرِ
وكأنهـا قمريـة قـد غـردت لحن التصـابي في خميلـة صـدري
ألفيتها فوق الرمـال تخـاف مـن عين الترقـب في الحصـى والبحـرِ
ترنو اليـمين إلى الشـمال كأنهـا ظـبي تغفـل أمـه في ذعـرِ
وكأنهـا حـذر النـواظر ترتجـي في كـل عـين أعينـاً للنسـرِ
راقبتـها حـتى اطمـأنّ فؤادهـا مـا للعيـون ظوامئـاً مـن أثـرِ
وتقلبـت فـوق الرمـال سـخيّة بالحسن يلثمهـا الحصـى في مكـرِ
متعلقـاً تثنيـه عـن يـدها قِلـىً فيجيبـها قـبلاً بـدت في النحـرِ
وكأنما لمحـت مـن الرمـل الهـوى فتخلصـت مـن حبـه بـالهجرِ

(١) قصيدة من اثنين وخمسين بيتاً.

٤- ثورة

على زبد الرياء نما الجفاءُ بأيام يواكبها الفناءُ
سئمت من الخديعة كل صِلٍّ يوافيني دواءً وهْو داءُ
يواجهني مضيئاً ناظريه ودونهما لهيب لا ضياءُ
تَضاحَكَ نابُهُ يغري بودي ولو أغضيت روّته الدماءُ

٥- انتظار

حياتنا حياتنا بالليل والنهارْ
نعيش مثل تاجر يَرُوعُه البوارْ
أعد ساعات مضت كأنها إعصارْ
وأرقب الآتي الذي يضج بالأسرارْ

❁ ❁ ❁

صدى مراكش

رَوِّعوا الحقَّ بأرضِ الشُهداءْ واسجنوه في تصاريفِ القَضاءْ
واقتلوهُ إن رأى مدفعُكم أنَّ نَسْفَ الحقِّ للغِلِّ شِفاءْ
ويَح قومٍ طالما قد جُرِّعوا غُصةَ الذُلِّ وما زالوا ظِماءْ
أمةٌ تخشى من الحرب وما بَرِحت بعدُ جَنيناً في الخَفاءْ
عُلِّقت في الخوف من أرجُلِها فسعت للفَرِّ من قبل النِداءْ
أمةُ السُوءِ التي قد شَرَعَت مُنصُلَ الظُّلم على أرضِ النَقاءْ

obeikandi.com

آدهـا المـوتُ (بِفِتنـامَ) فصـا   لت بِحِقدِ الثـأرِ تغشَى الأبريـاءْ

تُحرزُ النَصْرَ على جيش الخيا   ل بأحلام إذا جَدَّتْ.. غُثاءْ

أمةٌ كانت فأضحت أمةً   كَبَّر الذُل عليها بالحُداءْ

نَخَر السُوسُ هوَى أعظُمهَا   ورأى العقلَ مجالاً للغذاءْ

وكذا الهَشُّ مع الناسِ إذا   تَخِذَ الدهرُ بهِ مَرعىً لِداءْ

أسلَم الرُوحَ وفيه قُوَّةٌ   غاب عنها في مهاوي الضعفاءْ

يا رجال الحقِّ يا فِتيتَهُ   ليسَ كالحقِّ يتيمَ الأوفياءْ

أنتمُ أهلٌ له فاستبسلوا   دونَه ما دام في الرُوح ذَماءْ

ليس للحقِّ نصيرٌ إن غفا   صاحبٌ عنه ولا بين السماءْ

أوقدوا الأوطانَ من نارِ الدما   كالجحيمِ مُوقدٌ فيهِ الهواءْ

لا تُضيعوا العُمرَ في اللهو فما   يلعبُ الدهرُ بغيرِ الأغبياءْ

واسبقوا الآمال في وادي العُلا   جاعلينَ الجُهد للسبق لواءْ

كم دعا الصائحُ واستبكى البُكا   وصياحُ الدمع أصداءُ فَضاءْ

كلما جَفَّ له دمعٌ... بكى   وغِراسُ الحق يُفنيهِ البُكاءْ

ليس كالقول يُريحُ المشتكي   والدمُوع الغزر من طَرْف النساءْ

شيمةُ الضّعفِ التي لا ترعوي   عن أناسٍ جهدهم نَقْشٌ بماءْ

أرخصوا القلبَ وهُبّوا وحدةً   تركز الحَقَّ جهاداً لا رَجاءْ

obeikandl.com

لم يَعُدْ للسِلم فيكم رَفَقٌ بعدَ ما داس العَرينَ اللُّؤماءْ
أوْقِدوا من شُعْلةِ الحقِّ الرُبى بهَشيم الرُوح للعَلْيا فِداءْ
فحَياةُ المَرْءِ ما أهْوَنَها في إسارِ الذُلِّ تَقْضي بالعُواءْ!

❁ ❁ ❁

فكاهة

في بستان يملكه حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب قضى وقتاً ممتعاً مع أساتذة قسم اللغة العربية وبعض طلابه وكان فيهم فتى من الصين أخذ يغني بعد الغداء، فكانت هذه الأبيات:

لو قال ضُبَيْبٌ[1] في المثل صينيّ يُعْولُ في نجد
صدَّقْتُ ولكن في خجل وخلَطْتُ الهزل مع الجد

❁ ❁ ❁

صيني يُعْول في نجد حق يرويه البستانُ
في مهد الشيخ ذرى المجد يترامى الصوت الوسنانُ
الخضرة تسري في دمنا بِشْراً والريح تداعبنا
والنخل يناغم رُمّاناً والكرم يعانقه الظلُّ
والقهوة روَّت ندمانا والخِل يصافيه الخِلُّ
وسّدْنا الكبسة تفاحاً ليهيج الحسنُ مع الطربِ

(١) ضبيب: هو الدكتور أحمد الضبيب مدير جامعة الملك سعود بالرياض (سابقاً).

لكـــن الصـــوت بنـــا ناحـــا صـــينيّ يشـــدو في العـــربِ!
عيَّـــاد[١] يســـأل والســـيد[٢] والشـــامخ[٣] يلـــهج في الصـــحفِ
مـــع أن المنشـــر قـــد أنجـــد فلمـــاذا نـــام مـــع الخـــزفِ
ويـــثير الدهشـــة منصـــور[٤] يســـتهدي مـــن شـــعر النـــبطِ
فيقـــوم عُبَيـــد[٥] ويمـــور ونصـــون القـــول عـــن الشَّـــرطِ!
أمـــا الشـــماع[٦] فقـــد تابـــا عـــن شـــذو الصـــين أو الجُـــزرِ
يستضـــحك في قـــولٍ يابـــا ويـــثير العـــذب مـــن الصـــورِ
يـــا خِـــلَّ الصـــين وتَيْـــوانِ لم نفهـــم عنـــك فـــلا تغضـــبْ
هيّجـــت مكـــامن أحـــزاني في وقـــت الصـــفو فلـــم أشـــغبْ

❁ ❁ ❁

لـــو قـــال ضـــبيب في المثـــل صـــيني يُعْـــولُ في نجـــدِ
صـــدَّقْتُ ولكـــن في خجـــل وخلطـــت الهـــزل مـــع الجـــدِّ

❁ ❁ ❁

(١) عياد: هو الدكتور شكري عياد الأستاذ السابق بآداب جامعة القاهرة.
(٢) السيد: هو الدكتور سيد حنفي حسين الأستاذ بآداب جامعة القاهرة.
(٣) الشامخ: الدكتور محمد الشامخ الأستاذ بآداب جامعة الملك سعود (سابقاً).
(٤) هو الدكتور منصور الحازمي عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية.
(٥) و(٦) عبيد، ود. حسن الشماع من أعضاء هيئة التدريس بآداب جامعة الملك سعود.

obeikandl.com

في الصين

إلى أساتذة قسم اللغة العربية بمعهد شانغهاي وطلابه بمناسبة زيارتي لمدينة سوجو[١]:

بسُوجُو جَنّةٌ تَسْبِيك حُسْنا ... وتَجْلُو قَلْبَكَ المَحزُونَ فنّا

روائع من أزاهير الرّوابي ... تُعانِقُ طَيْرَها الغرِّيد لحنا

وأنسامٌ خَطَرْنَ مُوقّعاتٍ ... على قَلْب المُحِبِّ إذا تَغَنَّى

تَرودُ العَيْنُ فيها كُلَّ حُسْنٍ ... يَطوفُ مع الخَيال بِكُلِّ مَغْنى

وأمواهٌ يَمِسْنَ مُدلّلاتٍ ... كخاطِرِ شاعرٍ مَعْنًى فَمَعْنَى

أَبَى التاريخُ يا سُوجُو انْزِواءً ... بِأرْضِكِ فانْثَنَى يَرْفض سجنا

وأطلقَ للصناع من الأيادي ... صحائف تزدهي حَجَراً ولَوْنا

تَرَى الصِّينَ العظيم بكلِّ خَطّ ... لِيُوسِعَ لِلحضارة فيه رُكْنا

❁ ❁ ❁

الأشباح

أيها العالَمُ الخفيُّ برَحب الكون تسعى من الليالي الحقيقهْ

تُغرِقُ اليوم والمواضي بأغوارٍ من السرِّ كالبحار العميقهْ

صامت ساكن كثيف الظلال السود خافٍ كطيف روح طليقهْ

أنت كالموت نتقيهِ ونخشى ... من لِقاه لجهلنا بالحقيقهْ

---

(١) يوم ١٤/١١/١٩٨٠.

ولعـــل الضـــياء في ظـــاهر الوجـــه ينســـابُ يُسِـــرُّ عمـــقَ الظـــلامِ
والضبابُ الكثيـــف يُخفـــي مـــن المجهـــول روحـــاً مـــن الســـنا البســـامِ
غـــير أن الخفـــيَّ في النـــاس مظلـــومٌ عليـــه أصـــابع الاتهـــامِ
وبـــدا الظـــاهر الظلـــوم بريئـــاً ساخراً من عمـــى قلـــوب الأنـــامِ

❁ ❁ ❁

في شِـــعاب اليبـــاب تخفـــق أحلامـــك يـــا عـــالَمَ الظـــلامِ الرحيـــبِ
وبقفـــر الطلـــول تنشـــر أجنـــادك بعـــد انطـــواءِ جنـــد الحـــروبِ
وغـــداً تعمـــر الـــدنى بـــك لا بالنشـــر المولَـــعِ بالتخريـــبِ
وتصـــير الحيـــاة في حـــوزة الأشـــباح أضـــحوكة بـــدت في نحيـــبِ

❁ ❁ ❁

أترانـــا مـــع الخيـــال عـــدونا باليـــالي فلـــم نعرهـــا عيونـــا
وجلونـــا مـــن الأواني كـــذابا رائع السبك في الـــدنى لـــن يكونـــا
وغـــزار الـــدموع تســـقي ربانـــا وعيـــون القلـــوب تبكـــي أنينـــا
وأديم الثـــــرى دمٌ بشـــــريٌّ يتلـــوى علـــى الثـــرى مجنونـــا

❁ ❁ ❁

يـــا إلهـــي وأنـــت للعـــدل رب لـــك في النـــاس عـــاجز وقـــويُّ
أَمِـــنَ الطـــين بـــدؤهم نبـــعَ الخُلـــفُ أم الخُلـــفُ ذاك شـــيء خفـــيُّ

يسترقّ القويُّ من هو بالضعف على مذبح الورى آدميُّ
أتُرى عالَمَ الظلام من الأشباح فيه مسالم وغويُّ

❁ ❁ ❁

وكثير من الأنام إلى الأشباح صاروا وإن هُمُ بجسومِ
يرهبون السّنا ويهوون ستر الليل في حالك الظلام الجثومِ
كالخفافيش في الدجى تطلب العيش لسرٍّ يكون في التهويمِ
وبهيُّ السّنا لعين العصافير حياة ومقتلٌ للبومِ

❁ ❁ ❁

فترى في الأنام سارق عرض أو حياة يكيل للناس حقدا
وغوياً يسلُّ روح الضحايا بالتهام الحقوق عهداً فعهدا
وعتياً يغلُّ مال البرايا باحتيال رمى به الناس وردا
وألوفاً تلبسوا بدجى الأشباح شادوا على المذابح مجدا

❁ ❁ ❁

قد بنينا من الرؤى كاذب الوهم لنلقي على الوجود ظلالَهْ
وثوى في النفوس ماردُ أشباحٍ يبث الهوى ويخفي ضلالَهْ
ما رأى الإنس في الدنى غير مرآة تصرخ منه خيالَهْ
فاحذري يا طيوفَ جنٍّ من الإنسان يغري جعل شيء صلا لَهْ

هروب

سأظل أشدو في ربى الأحـلام كالأمـل السـعيدِ
سأظل أعلـو في سمـاء الـوهم كـالنجم البعيـدِ
سأظل منطلق الجنـاح أهـيم كـاللحن الشـرودِ
سأظل مخمـورَ الفـؤاد أعـيش للـوهم الجديـدِ

وإذا تكاثفت الهمومُ ونـاء بي قيـدُ الـزمنْ
لم يلق دهري ما يريد من العذاب مـن المحـنْ

أنا لا أرى في عـالمي المحفـوف بـالورد النـديِّ
أملَ الصغير من الـورود يمـوت في ظـل القـويِّ
والسـمَّ ينفثـه الحقـود بوجـه ناديـة بغـيِّ
يَبُـثّ شـوكَ الـذل والإرعـاد في قلـب الأبيِّ

وزنابقَ الأحلام يهرق عطرَهـا بـاغ عنيـدْ
وتُسَلّ في كف الشباب من الرياض إلى اللحود

أنا لا أرى من يَطْعَمون الصـبرَ في سـجن رهيـبْ
أدمى أكفَّهُـمُ الشـتاءُ وذوَّبَـتْ فيـه القلـوبْ
وثمارُ سعيهمُ الظما والجـوعُ والخـوفُ الكئيـبْ
لا يطلبون من الحياة سـوى المنيـة عـن قريـبْ

ومواكب الأحزان يحدوها أنـين الـراكعينْ
ونخط في صخر الطريق شقاء آلاف السـنينْ

أنـــا لا أرى في عـــالمي لـــلإثم أفـــواج العبيـــدْ
يسعى بهم ليـــل جديـــد للخطايـــا مـــن جديـــدْ
لـــصٌّ، بغـــيٌّ، قاتـــلٌ، عـــاتٍ وشـــيطان مريـــدْ
مُلئـــت نفوسُـــهم ظلامـــاً فاســـتكانوا في القيـــودْ

وترى ضحاياهم يُشـــيبون الليـــالي بـــالأنينْ
وغذاء جرحهم الأسى والثأرُ والحقدُ الـــدفينْ

في عـــالمي نـــور تفـــيض بـــه الـــروابي والســـماءْ
ينساب حولي في ســـلامٍ ملـــهمٍ عـــذبِ الصـــفاءْ
لا تـــبرز الأنيـــابُ فيـــه مـــن ريـــاء أو دهـــاءْ
أو تصرخ الأهـــواءُ ظمـــأى للضـــحايا والـــدماءْ

رفّت به الأطيـــار تخفُـــقُ بالغنـــاء وبالأمـــلْ
ويثير فيه العطـــرُ والأنـــداءُ أحـــلامَ القُبَـــلْ

وأعيش كالطفـــل الغريـــر بـــه أســـامر خـــاطري
لا تُصـــرعُ الآمـــالُ فيـــه ولا يقيَّـــدُ طـــائري
أنســـى الزمـــان وقيـــدَه وجـــراح قلـــبي الحـــائرِ
وأظـــل أشـــدو في ربى الأحـــلام لحـــن الشـــاعرِ

۞ ۞ ۞

عند الرواح

النـــور يـــذوي في البطـــاحْ والطـــير يفـــزع للـــرواحْ
وملاحـــن الرعيـــان تبـــدو في الإيـــاب صـــدى نـــواحْ
والعشـــب ودعـــه الأصـــيل يميـــل مـــن نشـــوات راحْ
ومتوجـــات النخـــل يعبـــث كِبرهـــا فـــوق الريـــاحْ

❁ ❁ ❁

ومســـارح الـــوادي تضـــيق وتنطـــوي عـــبر الفضـــاءْ
وأزاهـــر الربـــوات تُغْمـــض عينـــها أيـــدي المســـاءْ
وجـــداول الأمـــواه تُســـكن عنـــدها قلـــبَ الفنـــاءْ
وأنـــا وحيـــد في الظـــلام أعـــيش في حُلُـــم الصـــباحْ

❁ ❁ ❁

النـــور يـــركض خائفـــاً كالطفـــل مـــن شـــبح مخيـــفْ
في كـــل ناحيـــة يـــرى في الليـــل أفـــواه الكهـــوفْ
في جوفـــه يبـــدو لـــه زنـــج يـــثيرون الـــدفوفْ
أيـــن المفـــر مـــن القضـــاء أبالبكـــاء أو الصـــياحْ؟

❁ ❁ ❁

صـــور يلوهـــا الشـــتاء تمـــر في ركـــب حـــزينْ

ليـــل ثقيـــل الصـــدر يجـــثم في الـــربى مثـــل المنـــونْ
ونعيـــق بومـــات مـــن الأشـــباح أصـــوات الأنـــينْ
ومعـــاول الأســـرار تعـــرف نفســـها بـــين الريـــاحْ

❁ ❁ ❁

أيـــن الأغاريـــد العـــذاب مـــن المزاهـــر في الطبيعـــةْ
يشـــدو بهـــا الـــوادي لأنـــوار الســـماوات الوديعـــةْ
فيثيبـــه الله العظـــيم علـــى تبتلـــه ربيعـــةْ
ويفـــيض بـــالوادي المـــنير مـــن الســـماوات المـــراحْ

❁ ❁ ❁

أيـــن المعـــاني الســـاميات النابضـــات مـــن الوجـــودْ
تســـري علـــى الـــوادي فتنفـــث ســـحرها فيمـــا تريـــدْ
فتـــراه في ضـــوء الإلـــه يمـــور كالطفـــل الوليـــدْ
بـــالنور يســـبح فـــوق وجـــه الأرض مـــن غـــير الجنـــاحْ

❁ ❁ ❁

لم يبـــق في الـــوادي ســـوى شـــبح يعـــيش علـــى الخفـــاءْ
يبـــدو الظـــلام بـــه كأحقـــاد يضـــن بهـــا الـــدهاءْ
خَفَـــتَ الوجـــودُ بـــه فـــلا لحـــن يـــنم ولا غنـــاءْ
لحـــن عميـــق كـــان فتَّـــان المعـــاني ثم راحْ

وَأفقتُ من حُلُم الصباح على مجاهدة الفؤادْ
مُدّت من المجهول حول القلب أيد من سوادْ
فبغى النجاة من المصير وكيف ينجو بالجهادْ
والنور حولي في الأصيل يئن من ألم الجراحْ

❁ ❁ ❁

زالت معالمه وتلك نهاية الأمل الغريرْ
فمن الطفولة للكهولة للتراب إلى المصيرْ
وحقائق الكون العظيم تعيش في الوادي الصغيرْ
فضت أمامي سرَّها في ساعة عند الرواحْ

✿ ✿ ✿

obeikandl.com